سورة الأنبياء(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ(٢) وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة فى مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعنى مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفيه زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضى ﴿ اقْتَرَبَ .. ۝١ ﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذى يملك الأحداث ويقدر

---

(١) سورة الأنبياء هى السورة رقم (٢١) فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، وعدد آياتها ١١٢ آية ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنين ، وهى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب نزول القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

(٢) قال الضحاك : أى اقترب عذاب أهل مكة ، لأنهم استبطأوا ما وُعدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بدر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٣] .

عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] فأتى تعني أن الأمر حدث قبل أن يتكلم ، والأمر ما زال مستقبلاً بدليل قوله : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد . فكيف - إذن - جمع بين الماضي ﴿أَتَىٰ .. ①﴾ [النحل] والمستقبل ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] ؟

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضيٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ㉓ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ㉔﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ لها عناصر : الفاعل أنت والمفعول به والزمن غداً ، والسبب الذي يدعوك للفعل والقدرة التي تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغي أن تُبرِّيء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذي يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضي : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أي قريباً ، أو سوف يحضر أي : بعد ذلك .

هذا الذى يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شىء مرهون بأمره التكوينى ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شىءَ يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذى يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضى ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضى (اقترب) أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑲ ﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعنى دنا ، أما اقترب أى : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشىء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين . أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتى بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ㊲ ﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطانى زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب فى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] فيقتضى مُحَاسِباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحاسَباً عليه وهى الأعمالُ والأحداث التى أحدثوها فى دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسِنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع فى نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شىء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذى يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضى أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً : جماعة فى الجنة وجماعة فى النار ، وقوله سبحانه فى الحديث القدسى : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى »(1) بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففى علم الله ما فعلوا وما تركوا .

ولا تنْسَ أن المحاسب فى هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب فى الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب فى الشر كان على قَدْره دون زيادة ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾ [النبأ]

وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدَّ له ، فلا نسير فى الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

---

(1) أخرج أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) وعبد الله بن أحمد فى زوائده على مسند أبيه من حديث أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى ».

فمن رحمته تعالى بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم فى سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

إذن : ما أخذنا ربنا على غرَّة ، ولم تُفاجئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات فى بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدرى ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] مع أن الساعة ما زالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة ما لا يعلمه إلا الله . فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التى يقضيها فى القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شىء ظنىّ لا نضمنه ، والإنسان عُرْضة للموت فى أىِّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] فقال (لِلنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس)

أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء]

إذن : الحساب ليس في مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون في مثل هذا السياق ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١﴾ [الأنبياء] ما دام الأمر على الكفار ؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أي : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها : زحزحة الشيء عن بال الواجب ألاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التي جاء بها الدين ، وهذه هي المعاصي ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ .. ۝٢﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبي ﷺ صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت في جَذْر[1] قلوب الرجال)

---

(١) الجذر : الأصل من كل شيء . وفي حديث حذيفة بن اليمان : نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال . أي : في أصلها . [لسان العرب - مادة : جذر] .

والأمانة هى الإيمان الحق بالله ، أى : حَلَّ الإيمان ، واستقر فى القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أى : يغفل الغفلة (فيظل أثرها مثل أثر الوكت)[1] الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجِلْد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أى : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط[2] فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شىء) أى : انتفخ (فيصبح الناس) أى : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوى : (وقد مر علىَّ زمان ما كنت أبالى أيكُم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه علىَّ دينه) يعنى : إنْ غشَّنى فى شىء أو حدث خطأ ما فى البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه علىَّ ساعيه) أى : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحِسْبة ، فإنْ رأوْا غشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)[3] فإنْ كان هذا فى أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها

(١) الوكت : الأثر اليسير فى الشىء . كالنقطة من غير لونه . [اللسان ـ مادة : وكت] .

(٢) النفطة : بثرة تخرج فى اليد من العمل ملأى ماءً . قال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء . [اللسان ـ مادة : نفط] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧-٨٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

راحلة »[١] أى : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفى رواية أخرى : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً »[٢] أى : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان[٣] على القلب .

فغفْلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف ؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلِّف سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ مُّعْرِضُونَ ① ﴾ [الأنبياء] تدل على الافتعال أى : أنهم مفتعلون هذا الإعراض ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② ﴾

أى : ذكر من القرآن ﴿ مُّحْدَثٍ .. ② ﴾ [الأنبياء] يعنى : يسمعونه جديداً لأول مرة ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② ﴾ [الأنبياء] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِى بعضهم

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . قال ابن حجر فى فتح البارى (١١/٣٣٥) : « المعنى : لا تجد فى مائة إبل راحلة تصلح للركوب ، لأن الذى يصلح للركوب ينبغى أن يكون وطيئاً سهل الانقياد ، وكذا لا تجد فى مائة من الناس من يصلح للصحبة بأن يعاون رفيقه ويلين جانبه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان ، وتمامه : « فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء » .

(٣) الران والرين : هو كل ما غلبك وعلاك . والرين : سواد القلب من الذنوب . وأصل الرين : الطبع والتغطية . [لسان العرب ـ مادة : رين] .

بعضاً به ويُحرِّضون عليه ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

إنهم يخافون إنْ سمعوا القرآن أنْ يتأثروا به فيؤمنوا ؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد في هدوء واطمئنان فيؤمن به . وهذا يعني أن هذا العمل في مصلحتهم ؛ لأنهم لا يستطيعون رَدَّ حُجَج القرآن ولا الثبات أمام إعجازيته ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فَهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفوا الناس عن سماعه ، والتشويش عليه ، حتى لا يتمكّن من الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نفسك بعمل لا قَصْدَ فيه لغاية ، كما يأخذ الطفل الصغير كراسة أخيه ، ويعبث فيها بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضاً اللهو : وهو عمل مقصود لغاية ، لكن هذه الغاية تضعها أنت لنفسك ، أو يضعها غيرك ممَّنْ يريد أنْ يُفسدك بها ، إذن : هو عمل مقصود وله غاية ، ليس مجرد (شخبطة) كمَنْ ينشغل مثلاً برسم بعض الصور للتسلية ، أو ينشغل بحلّ الكلمات المتقاطعة ، فهي أعمال لا فائدة منها .

أما العمل النافع الذي ينبغي أن ينشغل الإنسان به فهو الذي يضعه لك مَنْ هو أعلى منك ، وأنْ يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلا في الإله ؛ لذلك كل ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك فهو لَهْو ؛ لأنه شَغَلك عما هو أهَمّ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٣٦) ﴾ [محمد]

فاللعب فى مرحلة الطفولة ، بل نأتى نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أنْ تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية ، لكنها تلهيك عن غاية أسمى هى التى وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتهى اللهو واللعب أن يلعبوا عند سماع القرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ؛ لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً فى فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُربّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق فى هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان ، وهذه مهمة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به . وهكذا فى كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربّى فى الولد مواجيده على اليقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونِعَمه . ويرى أباه الذى يتعهده ، ويأتى له بكل شىء لا يتصيَّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كل شىء إلى الله .

فأبوه - وهو المثل الأعلى له - يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللَّهْو واللَّعب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المواجيد ، ولا ينشأ الفعل دون مَوجدة إلا فعل المجنون ، والقلوب هى التى تُوجّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما دخل على رجل يعبث بذقنه وهو يصلى - كما يفعل الكثيرون - قال : لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه[1] . فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب ؟ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾

ويا ليت كلاً منهم يفعل هذا الفعل فى نفسه ، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. ۝٣ ﴾ [الأنبياء] أى : يتناجَوْن فى الإثم ، ويُسِرُّونه يعنى : يجعلونه سِراً . والنَّجْوى أو التناجى : خَفْض الصوت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ .. ۝٧ ﴾ [المجادلة]

فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله ، أو تُخْفون عنه شيئاً . وتلاحظ فى ارتقاءات العدد فى هذه الآية أنها لم تذكر اثنين ، فبدأت من العدد ثلاثة ؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين ، إنما تكون بين الثلاثة ، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث .

كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب ، فلم تَقُلْ مثلاً : ولا أربعة إلا هو خامسهم ؛ ذلك لأن الآية لا تقصد الترتيب العددى ، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .

---

(١) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (١٥١/١) من حديث رسول الله ﷺ . قال العراقى فى تخريجه للإحياء : « أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف لأنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم » .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. (٨)﴾ [المجادلة]

وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسِرُّونه ، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقّاً لَقالُوه علانية ، فالنجْوى دليلُ اتهامهم فى العقل ، وفى القلب ، وفى كل شيء .

أما قوله تعالى فى شأن النبى ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢)﴾ [المجادلة]

وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سراً ؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا .. (٦٣)﴾ [النور]

فالمراد ألاَّ نرفع أصواتنا فى حضرة النبى ﷺ كما يحدث منَّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً ، بل نُكلِّمه كلام المهيب ، ونلتزم معه الأدب والخشوع .

وقوله تعالى : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٣)﴾ [الأنبياء] هل (الذين) هنا هى الفاعل لأسرُّوا ؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم الفعل على الفاعل لزم صورة الإفراد نقول : أكل القوم . لا نقول : أكلوا القوم ، وهنا ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. (٣)﴾ [الأنبياء] لو أن (الذين ظلموا) هى الفاعل لقال : وأسرَّ الذين ظلموا ، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هى الفاعل ، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .

فكأن سائلاً سأل : ومَن الذى أسرَّ ؟ فأجاب : (الَّذِينَ ظَلَمُوا)

وكلمة (ظَلَمُوا) عامة فى الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً ؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشئ من أنه ظلم الحق الأعلى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ ﴾ [لقمان]

ثم ظلم الناس فى أمور أخرى وفى حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة ؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظلَم اللهَ فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .

فما النجوى التى أسرَّهَا القوم ؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها ؟

النجوى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ۝٨ ﴾ [المجادلة]

فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها فى أنفسهم وأسرُّوها ؟ ألم يكُن على هؤلاء أنْ يتنبَّهوا : كيف عرف محمد مقولتهم ؟ وأن الذى أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذى لا تَخْفى عليه خافية ، كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذى يعلم خَبْءَ كل شىء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء فى تناجيهم : ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ۝٣ ﴾ [الأنبياء] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ [الأنبياء] فسمُّوا القرآن سِحْراً ، لأنهم يروْنَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ [الأنبياء] أن القرآن يفعل مثل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ ﴾

كان سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرّه القوم ؟ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ④﴾ [الأنبياء] فلا تخفى عليه خافية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④﴾ [الأنبياء] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال .

ومما قالوه أيضاً :

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ[1] أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ⑤﴾

(بَلْ) تعنى أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفوا بما قالوا ، بل قالوا أيضاً ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ .. ⑤﴾ [الأنبياء] وأضغاث : جمع ضِغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء فى قصة أيوب عليه السلام : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ .. ④④﴾ [ص] أى : حزمة من أعواد الحشيش .

ووردتْ أيضاً فى رُؤْيا عزيز مصر : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ④④﴾ [يوسف]

وقوله ﴿بَلِ افْتَرَاهُ .. ⑤﴾ [الأنبياء] أى تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلاقه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ .. ⑤﴾ [الأنبياء] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة فى ماهية ما هو ؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكرون أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر !!

وقد سبق أنْ فنَّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل فى

(١) أضغاث أحلام . أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/٣٩٤] .

طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) ﴾ [الأنبياء] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ، فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التى جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم فى هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التى اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ يؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله ؛ لذلك لم يُجِبْهم إلى ما طلبوا من الآيات ؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنزِل بهم العذاب ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

إذن : هذه التجربة مَرَّتْ مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا فى موضع آخر : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. ⟨٦⟩ ﴾ [التغابن]

يعنى : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منَّا ، فكيف يهدوننا ؟! وهل الرسول يهديكم ببشريته ؟ أم بشيء جاءه من أعلى ؟ هل منهجه من عنده ؟

الرسول ليس مُصلحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ربى وربكم . وقد سبقتْ السوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ .. ⟨٧⟩ ﴾ [الأنبياء] ولو أرسلنا إليهم ملَكاً لجاءكم الرسول ملَكاً . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⟨٧⟩ ﴾ [الأنبياء] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة ؟

ذلك لأن المفروض فى النبى أن يكون قدوة لقومه وأُسْوة ، مُبلِّغَ منهج ، وأُسْوةَ سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة[1] ، إنما هو أُسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسى فى القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّى مع المتأسَّى به .

فلو رأيتَ مثلاً فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر فى يوم ما أن تكون أسداً ؟! هل تأخذ الأسد لك أُسْوة ؟! لا ، لأنه يُشترط فى أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب فى الأعداء يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

(١) النجوة : ما ارتفع من الأرض . قال أبو زيد : النجوة المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك . [لسان العرب ـ مادة : نجا] .

كذلك إذا جاء النبى ملكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ، إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا فى صورة بشرية .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥)﴾ [الإسراء]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر . ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « يرد علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء] أى : إنْ كنتم فى شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب[1] .

وقال : ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء] لأنها مسألة علْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾

---

(١) قاله سفيان . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن . قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال على رضى الله عنه : نحن أهل الذكر . [تفسير القرطبى ٤٤٤٧/٦] .

﴿ جَعَلْنَاهُمْ .. ⦗٨⦘ ﴾ [الأنبياء] أى : الرسل ﴿ جَسَدًا .. ⦗٨⦘ ﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأىّ بشر ، ويمشون فى الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ⦗٨⦘ ﴾ [الأنبياء] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعَلموا عنهم هذه الحقيقة ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ⦗٣٠⦘ ﴾ [الزمر]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ⦗٩⦘ ﴾

وهذه سُنَّة من سُنَن الله فى الرسل أنْ يَصْدقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه ؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ⦗١٧١⦘ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ⦗١٧٢⦘ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ⦗١٧٣⦘ ﴾ [الصافات]

وكان صدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⦗١٠⦘ ﴾

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبى : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه ،

ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن فى القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعى أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (الم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً فى رسول الله ؛ لأن العرب فى لغتهم وأسلوبهم فى الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلِّم والسامع ، المتكلِّم لا يُفَاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمّا السامع فقد يُفَاجأ بكلام المتكلم، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقظه ويُنبِّهه حتى لا يفوته شىء .

وهكذا وُضعَتْ فى اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام فى شىء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شىء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم[1] :

★ ألاَ هُبّى بِصَحْنِك فَاصْبِحينَا[2] ★

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، كان من أعز الناس نفساً ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمر طويلاً ، مات فى الجزيرة الفراتية عام ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) شطر البيت الأول من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والجمع : الصحون . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى . [انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى . ص ١٦٥].

وقول آخر :

ألاَ انعِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالى[1]

وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العَصْرِ الخالى[2]

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعنى : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : ﴿ألا إنَّ أولياءَ اللَّه لا خَوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس] ﴿ألا إنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ .. (٥)﴾ [هود]

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزَّلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف . أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُراد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدى إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصَّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التى اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة فى القتل هى نفس الدية التى حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ،

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . [لسان العرب ـ مادة : طلل] .

(٢) البيت لامرىء القيس ، ذكره الزوزنى فى شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ (هامش) .

كثيرون منهم كانوا يُحرِّمون الخمر ولا يشربونها ، هكذا بالفطرة ، وكثيرون كانوا لا يسجدون للأصنام ، إذن : الفطرة السليمة قد تهتدى إلى الحق ، ولا تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى ﴿ ذِكْرُكُمْ .. ۝ ﴾ [الأنبياء] شرفكم وصيتكم ومكانتكم ونباهة شانكم بين الأمم ؛ لأن القرآن الذى نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثنى عقول الناس جميعاً ، ويثنى قلوبهم للغتكم ، ويحثهم على تعلّمها ومعرفتها والحديث بها ونشرها فى الناس ، فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأىُّ شرف بعد هذا ؟!

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] أفلا تُعملون عقولكم وتتأملون أن خيركم فى هذا القرآن ، فإنْ كنتم تريدون خُلقاً وديناً ففى القرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففى القرآن ، وأىُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبى عربى ، والقرآن عربى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ ١١ ﴾

قصمنا : القَصْم هو الكَسْر الذى لا جَبْرَ فيه ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة ، ليأخذوا منها عبْرة وعظَة ، فليس بدعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين ، بل لها سوابق كثيرة فى التاريخ[1] .

(١) قال القرطبى هنا فى تفسيره (٤٤٤٩/٦) : « يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور ، وكان بُعث إليهم نبى اسمه شعيب بن ذى مَهْدَم ، وليس بشعيب صاحب مدين » .

لذلك قال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا .. (١١) ﴾ [الأنبياء] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التى لا تُعَدُّ ، فاحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أنْ يُنزل بكم ما نزل بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) ﴾ [الأنبياء] أى : خَلَف بعدهم خَلْف آخرون .

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا(١) إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) ﴾

أى : حين أحسُّوا العذاب ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) ﴾ [الأنبياء] حتى لا يلحقهم العذاب . والركْضُ : الجَرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : ركْضُ الدابة . يعنى : ضَرْبها برِجْله كى تُسرع . ومنها : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢) ﴾ [ص] يعنى : اضرب الأرض برِجْلك لتُخرج الماء ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص]

وفى هذه الآية ملْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآنى ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ فى جلده ، وأراد له ربُّه - عز وجل - الشفاء . فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوْا مثلاً البثور والدمامل فى الجلد يعالجونها بالمراهم التى يندملُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهى فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ، وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة فى الجوف .

(١) البأس : الشدة والقوة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - فى قصة هؤلاء المكذِّبين قدَّم الغاية من العذاب ، فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ.. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ثم فصَّل القَصْمَ بأنهم لما أحسُّوا العذاب تركوا قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترِفْتم فيه .

والتَّرفُ : هو التنعُّم نقول : ترف الرجل يترف مثل : فرح يفرَح أى : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .

ومنها أيضاً : أترفَهُ الله يعنى : غرَّه بالنعيم ؛ ليكون عقاباً له .

فقوله هنا ﴿ إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ.. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء] من أترفه الله يعنى : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم ؟

قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعِّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .

وقد مثَّلْنا لذلك بأنك إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلمَ له .

ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الانعام] أعطيناهم الصحة والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الانعام] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

ومَلْمَح آخر في قوله تعالى : ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الانعام] لا لهم كما في : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سَيَبْطرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾ [الأنبياء] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزى سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم :

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾

لما أحسَّ المكذِّبون بأسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿يَا وَيْلَنَا .. (١٤)﴾ [الأنبياء] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسى) أو (يا شقائى) وهل أحد ينادى على العذاب أو